الفصل السابع

العلاج بالإبر الصينية

تقوم فلسفة الطب الصينى فى استخدام الإبر الصينية للعلاج على اقتناع الحكماء الصينيين القدماء بوجود قوة حيوية خفية، هذه القوة هى أساس الحياة للكائنات جميعا وتساعدهم على النمو وتكون المصدر الأساسى الوحيد للطاقة اللازمة لحياة الكائنات على وجه الأرض، ويعتقد حكماء الطب الصينى أن هناك قوتين تنبثقان من هذه القوة الحيوية، القوة الأولى ويطلق عليها يانجYang وهى القوة الموجبة التى يعتقد أنها توجد أساسا أثناء النهار فى طاقة الشمس، والأخرى سالبة وتظهر ليلا فى نور القمر وتسمى ين (Yin) هذه الفلسفة الازدواجية تلخص عمل الطاقتين اليانج والين فى العمل على تدفق الطاقة الحيوية اللازمة لحياة الإنسان والموجودة داخل الجسم البشرى Vital Energy وعند حدوث خلل فى إحدى هاتين القوتين أو كلتيهما، فإن ذلك يؤدى إلى الإصابة بالمرض وهو ما يسمى فى الطب الصينى بحالة الاختلال أو عدم الاتزان فى الطاقة. هذا الاختلال الحيوى الموثر سلبيا على طاقة الإنسان يتم تعديله وعلاجه عن طريق اتباع أسلوب الوخز بالإبر الصينية، والذى صمم أساسا لإعادة الثبات الفسيولوچى والانسجام الداخلى والعمل على تثبيت حالة الاتزان الطبيعية لجسم الإنسان.

بدأ انتشار العلاج بالوخز بالإبر الصينية فى ربوع مملكة الصين القديمة قبل الميلاد بخمسة قرون، وكما تشير الوثائق المدونة فى المكتبات التاريخية فإن المصادفة وحدها كانت سبب اكتشاف هذا النوع من العلاج. ففى أحد الأيام أصيب جندى يسهم نافذ فى صدره وبعد علاجه لاحظ الجندى أن بعض الأمراض التى كان يعانيها قبل الإصابة

قد اختفت تماما كما لاحظ أن بعض المناطق على سطح جسمه قد انعدم فيه الإحساس بالألم رغم بعدها عن مكان الإصابة الأصلى وقد صرح هذا الجندى بملاحظاته لفريق الأطباء المعالجين له فى ذلك الوقت، والتقط الأطباء الصينيون القدامى هذا الخيط وأبدوا اهتماما خاصا لهذه الظاهرة وبدءوا يجرون مئات بل آلاف التجارب اليومية، والتى أوضحت أن إصابة الجندى فى هذه المنطقة بالذات من جسمه قد خفضت الألم فى باقى أجزاء الجسم، كما لاحظوا أيضا وجود دلالات كثيرة على وجود علاقة بين مرض عضوى ومرض معين بالجسم ووجود ألم فى نقطة معينة أخرى على سطح الجلد، ومن هذا استوحت فكرة علاج عضو بالجسم بنقطة على سطح الجلد ترتبط به وليست موجودة بالعضو نفسه. وبدأت تجاربهم المثيرة تثمر عن اكتشافهم لشبكة معقدة وغزيرة من الخطوط والنقاط السطحية والعميقة، والتى تغطى معظم أنحاء الجسم ثم قاموا بعد ذلك بتوثيق ورسم أشكال توضيحية عديدة تقوم بوصل هذه النقاط والمسارات ببعضها البعض وهى أشبه ما تكون بالجهاز العصبى الذى تم اكتشافه بجسم الإنسان حديثا عن طريق أبحاث الطب الغربى ولقد ثبت فى عام ١٩٦٥، ومن خلال أبحاث مكثفة فى مجال الكهروفسيولوجيا والفسيولوچيا العصبية، أن ما اكتشفه الصينيون من مسارات للطاقة داخل الجسم منذ آلاف السنين ما هو إلا تكوينة الألياف الدقيقة فى الأعصاب، والتى ثبت حديثا أنها المسئولة عن نقل نبضات الألم من سطح الجلد إلى الجهاز المركزى للإحساس بالألم فى المخ والعكس، وثبت أيضا أن للإبر الصينية تأثيرا مثبتا على الألياف العصبية الكبيرة المسئولة عن منع مرور الإحساس بالألم من خلال الخلايا العصبية، وبالتالى إلى الجهاز المركزى للإحساس بالمخ، وكما سبق أن تكلمنا فى فصل سابق عن نظريات بوابات الألم فقد تبين أن وخز نقاط معينة بهذه الإبر يؤدى بالتبعية لغلق بوابات الجهاز العصبى وهو الأمر الذى يؤدى لوقف سيل النبضات العصبية من وإلى بعض المراكز بالمخ البشرى.

القواعد الفلسفية للوخز بالإبر الصينية

كانت الازدواجية فى نظريات الطب القديمة غير معروفة قبل اكتشاف حكماء الصين القديمة لها، وقبل استنباط نظريات الازدواجية فى الطب الصينى كان الحكماء

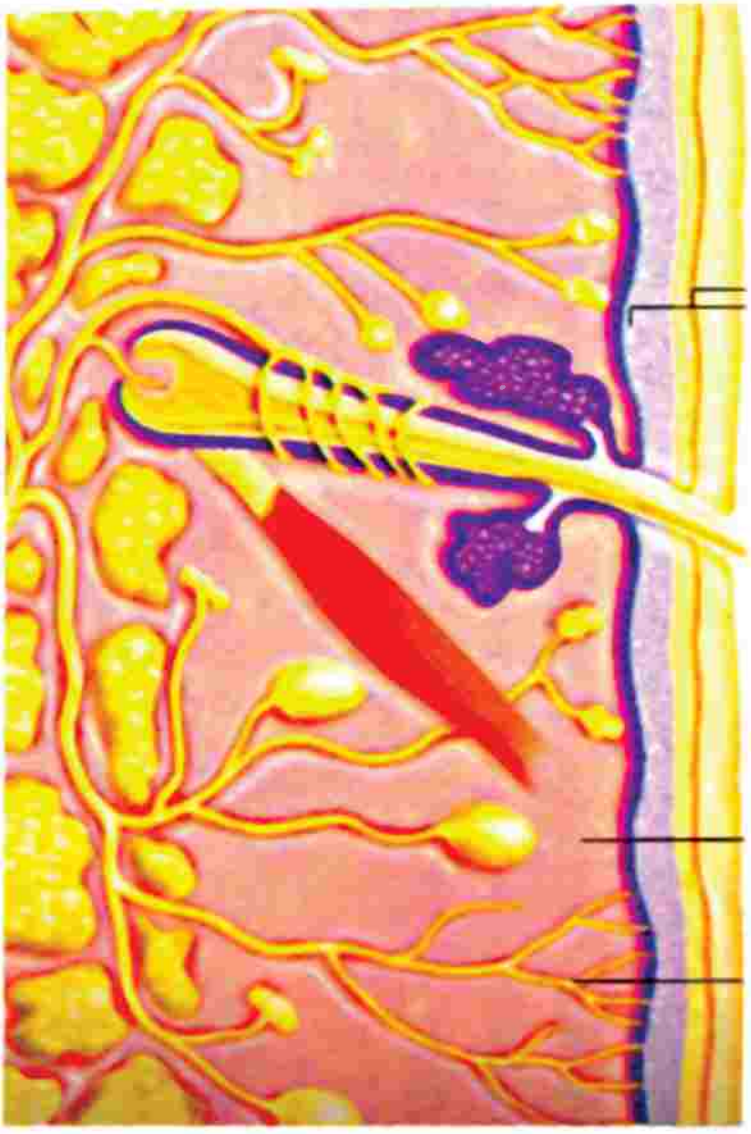

تعتمد قدرة الإبر الصينية على علاج الأمراض فى الوصول إلى الطبقات العميقة تحت الجلد
والتأثير على الأعصاب الحسية كما هو مبين بالشكل

الصينيون القدامى يؤمنون فقط بنظرية العقيدة التاوية (Taoism) الخاصة بالحياة، والتى اعتبرت أن الإنسان يعد جزءًا حيًا مكملا لكون حى، وتبنَّى هذا التفكير الفلسفى مبدأ عدم وضع أى فواصل محددة بين الواقع المادى وغير المادى أو بين الطبيعى وغير الطبيعى، ولذلك كان يوجد مبدأ أساسى متمثل فى القوة المتوازنة لمجال كونه تتغير فيه بصفة مستمرة وإلى مالا نهاية قوتا الين واليانج، ولإعطاء أمثلة على ذلك فإن الضوء يمكن أن يأخذ شكل الظل والشخص السليم الصحيح يصبح مريضا ويتحول الموجب إلى سالب تحت ظروف معينة، فإن تلك القوتين الحيويتين ـ كما نرى إذن ـ تتبادلان العمل بلا توقف، وهما جزءان متفتحان على بعضهما لغرض شىء واحد متكامل وهو طاقة الحياة، وطبقا لتلك الفكرة الفلسفية الصينية فإن الحياة والصحة لأى كائن حى تعتمد على التدفق الحر لتلك القوى وللتوازن الصحيح للين واليانج، فإذا ما اضطرب ذلك التوازن ـ كما قلنا قبل ذلك ـ فسوف يصبح الكائن الحى مريضا ويجب على المعالج إذن محاولة استعادة توازن الجسم والتدفق الحر للطاقة. وبالرغم من أن القوة الحيوية تنتشر فى كل خلية ونسيج حى داخل جسم الإنسان إلا أن هناك دورة منتظمة للقوة الحيوية لها حدود ومسارات داخل الجسم وقد تتبع العلماء الصينيون مسار ذلك التدفق الدائرى على سطح الجلد وقاموا برسم خرائط عديدة لذلك التدفق، وانحصرت هذه المسارات فى عدة قنوات محددة سميت بمسارات الطاقة (Meredians) وترتبط مباشرة بالنقاط المحددة، والتى بدورها تتصل بالأعضاء المختلفة للجسم وتنظم عمل وظائفها الحيوى. ولكل نقطة من تلك النقاط منطقة محددة ومقيسة بدقة ووضوح ولها طريقة خاصة للتأثير. وقد تم التأكد من وجود تلك الاتصالات التى تربط ما بين تلك النقاط والأعضاء الداخلية للجسم عن طريق التجارب التى لا يمكن حصرها، وأيضا بتراكم الخبرات التى نمت بطرق عديدة من الأطباء الصينيين القدماء، والتى تم التثبت والتحقق منها فى عصرنا الحديث بواسطة المراكز البحثية المتخصصة وعلى مستوى دولى عال.

وبالرغم ما رأينا من تأثير الفلسفة التاوية على منظومة العلاج الوخزى بالإبر الصينية فإن القائمين على هذه المنظومة لم يهملوا فى التركيز على الأعراض المنطقية والمتطورة للجسم، ليس فقط فى الماضى بل أيضا فى المستقبل؛ إذ إن الاعتماد على استخدام تلك

الوخزة الثاقبة للإبر الصينية أكسب هذا الفرع الصينى أرضية صُلْبة انتشرت بسرعة ملحوظة فى مختلف أنحاء العالم خلال العشرين سنة الماضية حيث إن كل شخص درس هذا النظام العلاجى أو ارتبط به بطريقة ما اعتقد أنه قادر على شفاء وإزالة أمراض كثيرة عجز الطب الغربى الحديث على علاجها. مما أكسب هذه المنظومة العلاجية شهرة فى علاج الأمراض ليس فقط فى بلاد الصين، بل أيضا فى دول مجاورة لها مثل اليابان وكوريا، كما أُدْخِل فى فرنسا منذ القرن السابع عشر وأصبح يمارس بصورة منتشرة فى النصف الثانى منَ القرن الـ ٢٠ فى الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وألمانيا والنمسا وسويسرا ومصر والهند وغيرها من الدول، وذلك بواسطة أطباء درسوا ذلك النظام العلاجى وتخصصوا فيه.

وبالرغم من ذلك الانتشار فإن الكثير من الأطباء فى وقتنا الحاضر لا يزالوا يريدون تفسيراً شاملاً عن كيفية عمل ذلك النظام العلاجى الصينى، كما أنهم يلحون فى وضع أساس علمى منهجى كما هو فى وسائل العلاج الحديث لطريقة الوخز بالإبر، ويعتقد البعض منهم أن هذا النوع من العلاج يعد نوعا من فن السحر وليس علما، والجدير بالذكر أنه منذ بَدْء هذا الأسلوب العلاجى فى العصور القديمة فإن الأطباء الصينيين رَكَّزُوا كل انتباههَم فى أبحاثهم العلاجية، ليس على المرضى كما نفعل نحن فى طبنا الحديث بل على الطريقة الخاصة التى يمرض بها أى شخص؛ إذ إنهم يعتقدون أن لكل شخص طريقة خاصة يمرض بها، ولذلك فهم يبنون أسس طريقتهم العلاجية على علاج الشخص والمرض معا، ويربطون أهمية كبيرة لما يطلق عليه اسم الحالات النفسية وتصرفات العقل تجاه المرضى. وقد شرح الدكتور «فليكس مان» أحد علماء الطب الحديث فى الإبر الصينية بأنهما تعبيران لا ينفصلان عن بعضها البعض، بل يكونان شيئا واحدا؛ مما يعنى أن الأساس الذى يتبناه المعالج بالوخز بالإبر يعتمد على اعتبار أن الأعراض العضوية والعقلية للمريض تُعتَبَرَان ذات أهمية متساوية وتعتمدان على بعضهما البعض بطريقة لا يمكن تجاهلها، وإنَهما فى الحقيقة تعتبران بمثابة وجهين لعملة واحدة، وبعبارة أخرى؛ فإنه يجب على المعالج بالإبر الصينية العمل على الوصول لما وراء المؤثرات الفيزيائية والعقلية التى أحدثت اختلال التوافق الجسدى، كما يعنى ذلك أن التشخيص والعلاج متقاربان جدا بحيث إذا ما تم تحديد التشخيص

فيكون على المعالج فقط تحويله إلى مصطلحات مختلفة للتأكد من سبل العلاج بدقة، والعكس صحيح فإنه على الجانب الآخر إذا ما تم إيجاد العلاج فيتم التعرف على التشخيص المرتبط بهذا العلاج، وإذا لم يكن ممارس العلاج بالوخز بالإبر الصينية على درجة وافية من الخبرات المؤهلة لهذا النوع من العلاج فإنه يقع فى فشل ذريع يرتبط باستخدام هذا الأسلوب؛ وذلك ما يحدث فى أحيان كثيرة لغير المتخصصين الذين لا يملكون الخبرات الكافية لفلسفة العلاج بالإبر الصينية؛ لأنه إذا لم تتم طريقة العلاج بالأسس الصحيحة لهذه المنظومة العلاجية فإنه لن ينتج عن ذلك ترك المريض للعلاج فقط بل سوف تسبب له ضررًا جسمانيًا آخر بسبب الوخز الخاطئ؛ أو بمعنى آخر فإن الطبيب أو المعالج غير المؤهل لاستخدام طريقة الوخز بالإبر الصينية يمكن أن يشكل خطرًا على المريض أكثر من أى ممارس آخر، وبمعنى آخر فإن ذلك النظام العلاجى قد يكون مضرًا مثل أى فن شفائى طبى آخر إذا لم يطبق بطريقة طبية صحيحة، ولذلك تقوم المعاهد المتخصصة فى التدريب ودراسة العلاج بالإبر الصينية بإعطاء الخبرات العملية الكافية أكثر من النظام الطبى التقليدى، كما تركز على المعرفة الكاملة والتامة لنظريات التشريح والفسيولوچيا الأساسية لجسم الإنسان قبل أن يبدأ أى معالج فى ممارسة ذلك العلاج التخصصى.

دراسة أسس الوخز بالإبر الصينية الحديثة

بعد توصل العالم الصينى «كيم يونهاونزر» فى عام ١٩٦٤ إلى وجود قنوات ونقط خاصة بالوخز بالإبر الصينية، وهو الاكتشاف الذى أحدث ثورة فى أسلوب العلاج وإزالة وتخفيف الألم، وانعكست نتائجه المؤهلة فى ذلك الوقت فى شكل ردود فعل عالمية واسعة النطاق ساعدت الطبيب الفرنسى «بولنجيه» فى تطوير ودراسة العلاج عن طريق الوخز بالإبر وأفرد دراسات متعمقة لطرق العلاج بالوخز فى الأذن، ثم تابع عمله بعد ذلك الطبيب الألمانى (وول) فى أبحاث عديدة عن علاقة مسارات الطاقة ونقط العلاج بالإبر الصينية والجهاز العصبى للإنسان، والتى أصبحت أبحاثه تدرس حاليا فى الصين وأوروبا، وقد اعترفت منظمة الصحة العالمية رسميا بالإبر الصينية

كأسلوب علاجى هادف وفعال بحلول عام ١٩٧٩ وتم عقد أول مؤتمر علاجى لهذا الأسلوب العلاجى فى الصين فى نفس العام، ثم توالت المؤتمرات العالمية لدراسته وتعميمه فى شتى أنحاء العالم. وقد بدأ العلاج بالإبر الصينية فى مصر عام ١٩٧١ كأول دولة عربية تستخدم هذا العلاج ثم تلتها ليبيا عام ١٩٨٣ ثم تلا انتشاره فى دول الخليج العربى.

وسائل الوخز بالإبر الصينية

استخدم علماء الصين القدامى إبراً ذات مقاسات مختلفة تبدأ أصغرها من نصف بوصة وتتألف من أربعة أجزاء هى اليد والجذع والجسم والرأس ومن خامات متنوعة كالخشب والحجر وعظام الحيوانات ثم تطورت صناعتها لتصنع من معدن الذهب والفضة والبرونز الذى لا يصدأ، وقد توصل العالم الفرنسى «بولنوجى» مَن خلال دراساته على وسائل الوخز بالإبر أن لكل نوع إبرة تأثيراً مختلفًا فى العلاج، وأن من أفضل الإبر الصينية فى العلاج هى الإبر المصنوعة من معدن الذهب، وقامت مجموعة أخرى من العلماء فى التسعينيات بإجراء تجارب على بعَض الحيوانات مثل الأرانب كشفت أن الوخز بالإبر يؤدى إلى اتساع الأوعية الدموية بظهر وصدر هذه الحيوانات، كما يؤدى لحدوث اتساع مماثل فى الأوعية الدموية للأمعاء وقد تبين أيضا أنه عند حدوث انقباضات فى الأوعية الدموية فى أماكن معينة فى ظهر الفأر يؤدى بدوره إلى انقباض الأوعية الدموية للمخ، وكذلك لاحظ الباحثون أن الوخز بالإبر فى بعض المناطق بالجسم يؤدى إلى زيادة كرات الدم البيضاء وإفراز بعض كيماويات الدم التى تزيد من مناعة الجسم للڤيروسات والميكروبات؛ أى تعتبر بمثابة محفز لتكوين الجسم لمضاد حيوى طبيعى داخلى. وقد أصبح من المعروف أن سطح الجلد يعكس تأثيرا ظاهرا وواضحًا لحالة أعضاء الجسم الداخلية على شكل إحساس بالألم عند ضغط أو لمس هذه المنطقة من الجلد أو فى شكل انقباض عضلى أو تنبسط الأوعية الدموية أو تنقبض، ويمكن تفسير ذلك طبيا بما يسمى بنظرية رد الفعل اللا إرادى من العضو إلى السطح مثل ما يحدث فى حالة جلطة الشريان التاجى لبعض المرضى حيث يظهر الألم الشديد فى الكتف الأيسر. ويطلق على نقاط الجلد التى تظهر ما يحدث بالأعضاء